مقدمة

كان للمركز الأكاديمي للأبحاث وللأخ الباحث الدكتور نصير الكعبي الدور الأساس في ترشيح الكتيب الذي صدر عام ١٩٨١ من مؤسسة الموسوعة الصغيرة في بغداد، التي أنجزت الكثير من المؤلفات الصغيرة الحجم والمهمة جداً في ميادين كثيرة، لإعادة طبعه. وقد حثّني هذا التشجيع إلى وضع هذا الكتيب الموسوم بـ (تطور الإستشراق في التراث العربي) قاعدة للإنطلاق إلى بناء جديد واسع وأوسع مما كان الكتيب يشتمل عليه. إذ ضممت إليه عدداً من البحوث التي سبق إنجازها حول الإستشراق وبحوثاً أخرى لم تنشر بعد لإنتاج كتاب بعنوان جديد وهو (الإستشراق في التاريخ). وذلك لكوني أصبحت مطمئناً إلى أن دراسات عربية وإسلامية كثيرة قد تناولت الإستشراق والمستشرقين حتى أضحى وكأنه (موظة زماننا الحاضر) في اختيارات طلبة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) موضوعات رسائلهم الجامعية؛ الى الحدّ الذي صار مكرّراً وأحياناً موضوعاً مستهلكاً، وهذا قد يعزى إلى عدة نقاط من بينها:-

ضعف إن لم نقل إنكماش حركة المدارس الإستشراقية في البحث والتحقيق ومتابعة المشهورين والمتميزين في دراسات المستشرقين القدامى والمحدثين. يضاف إلى ذلك شح التفسيرات والآراء الفاعلة والساخنة التي توصل إليها أولئك العلماء القدامى، إذ لم نعدّ نسمع أو نقرأ دراسات إستشراقية معاصرة جدّية عن الحقول التاريخية التي طالما شغلت بال العلماء من المدارس الإستشراقية القديمة ومن الجمعيات الإستشراقية القديمة في أوربا وأمريكا ومن المجلات الإستشراقية المعنية بالدراسات الإسلامية ومن البعثات التبشيرية القديمة والعلماء الذين اعتمدتهم هذه البعثات وسائل في التبشير. طبعا هذا لا يعني مطلقا ان هناك توقّفا في مسار إنتاج الغربيين والمستشرقين إزاء التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والدراسات الإسلامية بضمها الدراسات القرآنية والحديث النبوي والفقه والنقد التاريخي للرواية التاريخية الإسلامية وغيرها من المجالات؛ إذ ما زالت حتى هذه اللحظة ـ إن لم أكن مبالغا ـ كتابات ودراسات وبحوث وكتب جامعة لبحوث يحققها الباحثون الأجانب أو المشارقة أو كليهما، وهذا دليل واضح على استمرار بقاء هذا المجال من المعرفة الإنسانية فاعلا ومؤثرا. وقد ساعد على حيويته وفاعليته بالنسبة الى الغرب المسيحي

والى المستشرقين الإسرائيلين أو الذين لا يمثلون النظرية الصهيونية من اليهود. فالقصد إذن يتمحور في موازنة علمية بين ما خاضه المستشرقون القدامى وما سجلّوا من قصب السبق في دراساتهم وتحليلاتهم وإن كانت في غالبيتها العظمى سلبية وتنظر لموضوعات التاريخ الإسلامي من زاويتين اثنتين الى حدّ كبير التأثير اليهودي والتأثير المسيحي على ظهور الإسلام، فضلا عن أن ماجاء به الإسلام من معطيات لا تظاهي تلك التي قدّمها الغرب، ولهذا فالإسلام عيال على الغرب جميعا بضمنه كذلك لم يعد المستشرقون مهتمين كثيراً بتحقيق المخطوطات الإسلامية موازنة بالحال التي تميز بها المستشرقون القدامى ممن بذل مجهوداً لا يظاهى في هذا المجال. فضلا عن عدم مجاراته في البحث والتحقيق والمتابعة ولاسيما بعد رحيل جيليّ المستشرقين المشهورين والمتميزين في دراساتهم القدامى منهم والمحدثين. يضاف إلى هذه شح التفسيرات والآراء الفاعلة والساخنة التي توصّل إليها أولئك العلماء القدامى، إذ لم نعدّ بعدا نسمع أو نقرأ الّا النادر من دراسات استشراقية معاصرة جدّية حول الحقول التاريخية التي طالما كانت تشغل بال وعناية العلماء من المدارس الإستشراقية القديمة ومن الجمعيات الإستشراقية القديمة في أوربا وأمريكا ومن المجلات الإستشراقية المعنية بالدراسات الإسلامية ومن البعثات التبشيرية القديمة والعلماء الذين اعتمدتهم هذه البعثات وسائل في حركات التبشير.

كذلك علينا عدم إغفال مسألة مهمة أخرى وهي عدم إمكان العلماء المحدثين والمعاصرين مجاراة المستشرقين القدامى في تحمّل اعباء ثقيلة في تعلم اللغات الشرقية أو في تكريس جلّ أوقاتهم وأعمارهم في قراءة المتون الصفراء القديمة. فلماذا هذا العناء الشاق في الوقت الذي سطّر فيه أساتذتهم وأساتذة أساتذتهم من المستشرقين نتائج وتفسيرات ومناهج باهرة وما عليهم إلا أن يعتمدوا الجاهز منها؟

ثم هناك نقطة ثالثة يجدر ذكرها تلك المتعلقة بالمتغير السياسي الإمبراطوري الذي تحرّك مع بداية أفول نجم الإمبراطورية البريطانية وبزوغ سياسة جديدة معنيّة ببناء مشروع عالمي أوسع وهو ما يعرف بالعولمة من جميع جوانبها السياسية والإقتصادية والثقافية والعسكرية، مستخدمة أساليب أكثر تطوّراً وأسلحة أكثر دماراً وتدميراً وتأثيراً في فرض سياسة الرعب والتخويف والتجويع والهيّمنة. فهذه النتائج مجتمعة وغيرها قد سهّلت عملية الهيمنة والنفوذ والسيطرة لا سيما السيطرة الإقتصادية على شريان الحياة في العالم كلّه. لهذا فلم تعدّ الحاجة ماسّة إلى مستشرق يزوّد العولمة بالمعلومات

التراثية ويقدّم استنتاجات وتحليلات بشأن السيرة النبوية وبالتاريخ الإسلامي؛ فما الجدوى أو المنافع المتوخاة من دراسة تاريخ ماض يمتّ الى قرون سابقة؟ ولاسيما أن الأوربيين قد أجمعوا على ترديد معادلة القوّة الأكبر حجما ماديا وتقنيا والأقوى حكماً وهيمنة بله وقسوة وهي أمريكا بأن الإسلام عامة يعادل الإرهاب؛ ولذلك فقد تحوّل اهتمام السياسات من جهة والعلماء من جهة أخرى إلى متابعة ميادين تتماشى والمعاصرة التي يخطّط الغرب إلى الإستحوإذ عليها وتسييرها وإبطال مفعول نظرية اشبنجلر وتوينبي في أفول الحضارة الغربية وانهيارها. والمعروف أن البروفسور آرنولد توينبي قد وضع شرطاً في مسألة إعادة الحياة لانتعاش الحضارة الغربية المسيحية من جديد وذلك بزرق جرعة قويّة جديدة تنشّط مسيرة حركة الحضارة الغربية الآخذة بالتدهور ـ على حدِّ قول شبنجلر .Decline of West وبالفعل فقد أحدثت العولمة هذا لكن ليس بوسيلة الديانة الجامعة المسيحية برأي توينبي إنما بفرض نظرية علمانية في الدولة الإقتصادية والسياسية والثقافية.وأخذت هذه الدولة، بعد تناولها جرعة التنشيط هذه، تهزّ العالم ولاسيما عالم الدول الضعيفة والفقيرة والتابعة والخائرة. ونجمت هذه السياسة بعد تحطيم قوّة عملاقة أخرى كانت تظاهيها في العظمة والفلسفة والواحدية وهي الإتحاد السوفيتي. من هنا أصبح التاريخ والتراث لأي أمة من الأمم لا يعني شيئاً وما هو إلا حلم ماضويّ لا ينفع كثيراً في الحركة التقنية السريعة جداً المندفعة نحو سيطرة مستقبلية على جميع أجزاء العالم.

ولّد نهوض الإسلام من جديد ردَّ فعل سريع، وكما وقفنا على هذه النقطة في الفصل الأخير من الكتاب، في تحرك الغرب السياسي. وإنه ـ اعتماداً على قول بوفيللي المتخصّص في الكتابة عن الدين في صحيفة الاندبندنت The Independent المسؤول عن عمود في مجلة Church Times في مقالته المترجمة بعنوان الحملة الصيبية الخامسة[(١)]، بوش الابن هو منجي البشرية وقائدها نحو السعادة. عندئذ تحرّك الغرب السياسي مرّة أخرى للاستنجاد بالعلماء المتمعنين في تاريخ الإسلام وحضارته وبالعقيدة الإسلامية والفرق الإسلامية للعودة إلى أقلامهم في الكتابة عن الماضي ودراسة التراث الإسلامي وفي عقد المؤتمرات والحثّ على الإعلام الرخيص في تشويه الإسلام وتشويه صورة نبيه سيد الأنام. هذه المتغيرات هي التي دفعتنا للوصول

---

(١) محمد، د. عبد الواحد (المترجم)، الحملة الصليبية الخامسة، جورج بوش ونصرته الحرب في العراق بقلم بول فيللي، الحكمة، عدد ٤٤ لـ ٢٠٠٧، ص ٢٢٩-٢٤٦.

إلى نتيجة مفادها عوّدة الإستشراق للظهور ثانية. لكنه استشراق هدفه الأساس عرض وتقديم مفهومية جديدة عن الإسلام عامة والإسلام الشيعي الإمامي الإثني عشري خاصة. ولعله من الصحيح القول بأن المستشرقين قد تركوا لساسة العولمة تنفيذ مشاريعهم في التهديد والوعيد بإثارة الحروب أو بفرض حصارات إقتصادية أو مختلف القيود على الإسلام الناهض أوالتخطيط لضربه تماما، كما صنعت الإمبراطورية البيزنطية في عصر الكنيسة والعصور الوسطى.

بهذا القدر من الكلام نودُّ تقديم هذا الكتاب الذي يسعى من بين ما يسعى إليه تشخيص المراحل التأريخية التي مرّت بها الحركة الإستشراقية عبر التاريخ، والوقوف مليّاً على الحقب الفكرية التي افترضنا أنها تمثّل مرحلة ما بعد الإستشراق سواء كان ذلك بما هو معنى بالنسبة إلى المفكرين العرب أوالمسلمين أم بالنسبة إلى العلماء الغربيين أنفسهم. وبكلمة أخرى فهذا الكتاب المتواضع يهدف إلى إرساء الفكرة بأن اهتمامات العلماء الغربيين والمؤسسات والمعاهد العلمية الغربية وأقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الأوربية والأمريكية والإسرائيلية والروسية ظلّت تعمل بجديّة في الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية إن كان هذا على شكل دراسات مستقلة أو جماعية أو ترجمة لنصوص إسلامية أو تحقيق في الميادين الدينية والإجتماعية والإقتصادية والفكرية.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم مرّة أخرى بالشكر الجزيل الى الإخوة العاملين في المؤسسة والأخ المسؤول عن التنضيد والأخ الدكتور المقوم اللغوي والإخوة الآخرين الذين أسهموا في إخراجه. وشكري موصول إلى الأخ الدكتور نصير الكعبي على تشجيعه في إعادة طبع الكتاب الأصل وهو (تطوّر الفكر الإستشراقي في التراث العربي). وأشكر الأستاذين حيدر الياسري وحسن الياسري على مساعدتهما في تهيأة العديد من الأمور العلمية من الإنترنيت.

د. عبد الجبار ناجي

شباط/ ٢٠١١